حَيَاةُ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم

بَعْثَةُ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم

كتبها
سمير حلبي

رسوم
عبد المرضى عبيد

جميع الحقوق محفوظة لشركة سفير

٢٠٠٣/رقم الإيداع ٢٠٠٦٥

الترقيم الدولي I.S.B.N.977-361-195-7

جرافيك وفصل ألوان : عاصم سيد أحمد

كَانَتِ السُّحُبُ الكَثِيفَةُ تَمْلأُ السَّمَاءَ، وتَسُدُّ الأُفُقَ بِلَوْنِهَا الرَّمَادِيِّ الدَّاكِنِ، واخْتَفَتِ الشَّمْسُ وَرَاءَ تِلْكَ الغُيُومِ التِى بَدَتْ وَكَأَنَّهَا جِبَالٌ تَتَحَرَّكُ بِبُطءٍ فَوْقَ سَمَاءِ «مَكَّةَ».

وَأَخَذَتْ قَطَرَاتُ المَطَرِ تَتَسَاقَطُ فَوْقَ رِمَالِ الصَّحْرَاءِ المُمْتَدَّةِ فِى إِيقَاعٍ رَتِيبٍ، وَمِنْ بَعِيدٍ بَدَتِ الكَعْبَةُ وَقَدْ أَخَذَتِ المِيَاهُ تَتَجَمَّعُ مِنْ حَوْلِهَا، وَكَأَنَّهَا تَعْكِسُ صَفْحَةَ السَّمَاءِ الدَّاكِنَةِ.

وَتَلاحَقَتْ قَطَرَاتُ المَطَرِ بِشَكْلٍ مُتَوَاصِلٍ، حَتَّى صَارَتْ وَكَأَنَّهَا خُيوطٌ كَثِيفَةٌ تَصِلُ مَا بَيْنَ الأَرْضِ والسَّمَاءِ.

وَفَجْأَةً بَدَأَتِ المِيَاهُ تَنْحَدِرُ بِشِدَّةٍ مِنْ جِبَالِ «مَكَّةَ» القَرِيبَةِ، وانْدَفَعَتْ بِقُوةٍ وَعُنْفٍ لِتُطِيحَ بِكُلِّ مَا يُقَابِلُهَا، وَارتَفَعَتِ المِيَاهُ لِتَغْمُرَ كُلَّ شَيْءٍ.

كَانَتِ السُّيُـولُ تَجْرِفُ فِى طَرِيقِهَا قِطَـعَ الصُّخُورِ والأَحْجَارَ الكَبِيرَةَ، وَتَدْفَعُهَا بِقُوَّةٍ كَأَنَّهَا قِطَعٌ مِنَ الخَشَبِ.

وَانْدَفَعَـتْ تِلْـكَ السُّيُـولُ نَحْوَ بُيُـوتِ «مَكَّـةَ»، تَكْتَسِحُهَا بِكُتَلِ الحِجَارَةِ والصُّخُورِ، فَانْهَارَ كَثِيـرٌ مِنْ تِلْكَ الدُّورِ، وَبَعْدَ أَنِ انْحَسَرَ السَّيْـلُ ظَهَـرَتْ جُدْرَانُ الكَعْبَـةِ وَقَدْ أُصِيبَت بِكَثِيـرٍ مِنَ الشُّقُوقِ والتَّصَدُّعَاتِ.

بَـدَتْ بُيُوتُ «مَكَّةَ» وَكَأَنَّهَا أَطْلالُ مَدِينَـةٍ قَدِيمَةٍ أَصَابَهَا الدَّمَارُ مُنْـذُ زَمَنٍ طَوِيلٍ، وانْتَشَرَ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِـنَ الرِّجَالِ والنِّسَاءِ، يُفَتِّشُونَ بَيْـنَ حُطَامِ تِلْـكَ البُيُوتِ عَنْ أَمْتِعَتِهِـم، وَيَسْتَخْلِصُـونَ مِنْهَا مَا لَم تُحَطِّمْهُ السّيُولُ.

وَفِى سَاحَةٍ وَاسِعَةٍ وَسَطَ ذَلِكَ الحُطَامِ والدَّمارِ اجْتَمَعَ عَدَدٌ مِنْ زُعَمَاءِ «مَكَّةَ» وَرُؤَسَاءِ قُرَيشٍ للتَّشَاوُرِ فِى إِعَادَةِ بِنَاءِ الكَعْبَةِ.

تَـرَدَّدَ كَثِيـرٌ مِـنَ الحَاضِرينَ فِـى أَمْرِ هَـدْمِ جُـدْرَانِ الكَعْبَـةِ وإِعَـادَةِ بِنَائِهَا مِنْ جَدِيدٍ، فَقَدْ كَانَ للكَعْبَةِ مَكَانَةٌ عَظِيمَةٌ فِى قُلُوبِهِـم وَهَيْبَةٌ شَدِيدةٌ فِـى نُفُوسِهِم، وَلَـمْ يَكُـنِ الإِقْـدَامُ عَلَى هَدْمِهَا بِالأَمْـرِ الهَيِّـنِ حَتَّـى وإِنْ كَانَ الهَـدَفَ صِيانَتُهَـا وإِعَادَةُ بنائِهَا مِنْ جَدِيدٍ.

لَكِـنَّ زُعَمَاءَ «مَكَّـةَ» لَـمْ يَجِـدُوا أَمَامَهُم- فِى النِّهَايَـةِ- بُدًّا مِنَ الإِقْـدَامِ عَلَـى تِلْكَ الخُطْـوَةِ الجَرِيئَةِ بِالرَّغْـمِ مِنْ شُعُـورِ الخَوْفِ وَالرَّهْبَةِ الذى تَمَلَّكَهُمْ.

وَسُرْعَـانَ مَا بَدَأَ العَمَلُ فِى إِعَادَةِ بِنَـاءِ الكَعْبَةِ مِنْ جَدِيدٍ، وَكَانَ يشَارِكُ فِـى البِنَاءِ أَشْـرَافُ قُرَيشٍ وَسَادَاتُهم، يحْمِلُـونَ الأَخْشَابَ وَقِطَعَ الحِجَارَةِ فِى تَعَاونٍ وَحَمَاسٍ عَجِيبَيْنِ.

وَارْتَفَـعَ البِنَـاءُ حَتَّى قَـارَبَ الانتِهَاءَ، فَلَمَّـا أَرَادُوا وَضْعَ الحَجَرِ الأَسْـوَدِ فِى مَوْضِعِهِ اخْتَلَفُوا فِيمَا بَيْنَهُم، وَأَرَادَ كُلٌّ مِنْهُم أَنْ يحْظَى بِهَذَا الشَّرَفِ، وَتَنَافَسُوا عَلَى ذَلِكَ، حَتَّى كَادَتْ تَحْدُثُ فِتْنَةٌ وَتُشعَلُ الحَـرْبُ بَيْنَهم، لكِنَّهم فِى النِّهَايَةِ اتَّفَقُوا عَلَى الاحْتِكَامِ إِلَـى أَوَّلِ مَنْ يَدْخُلُ عَلَيْهِم.

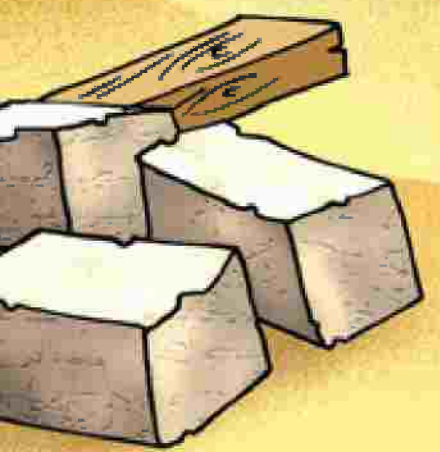

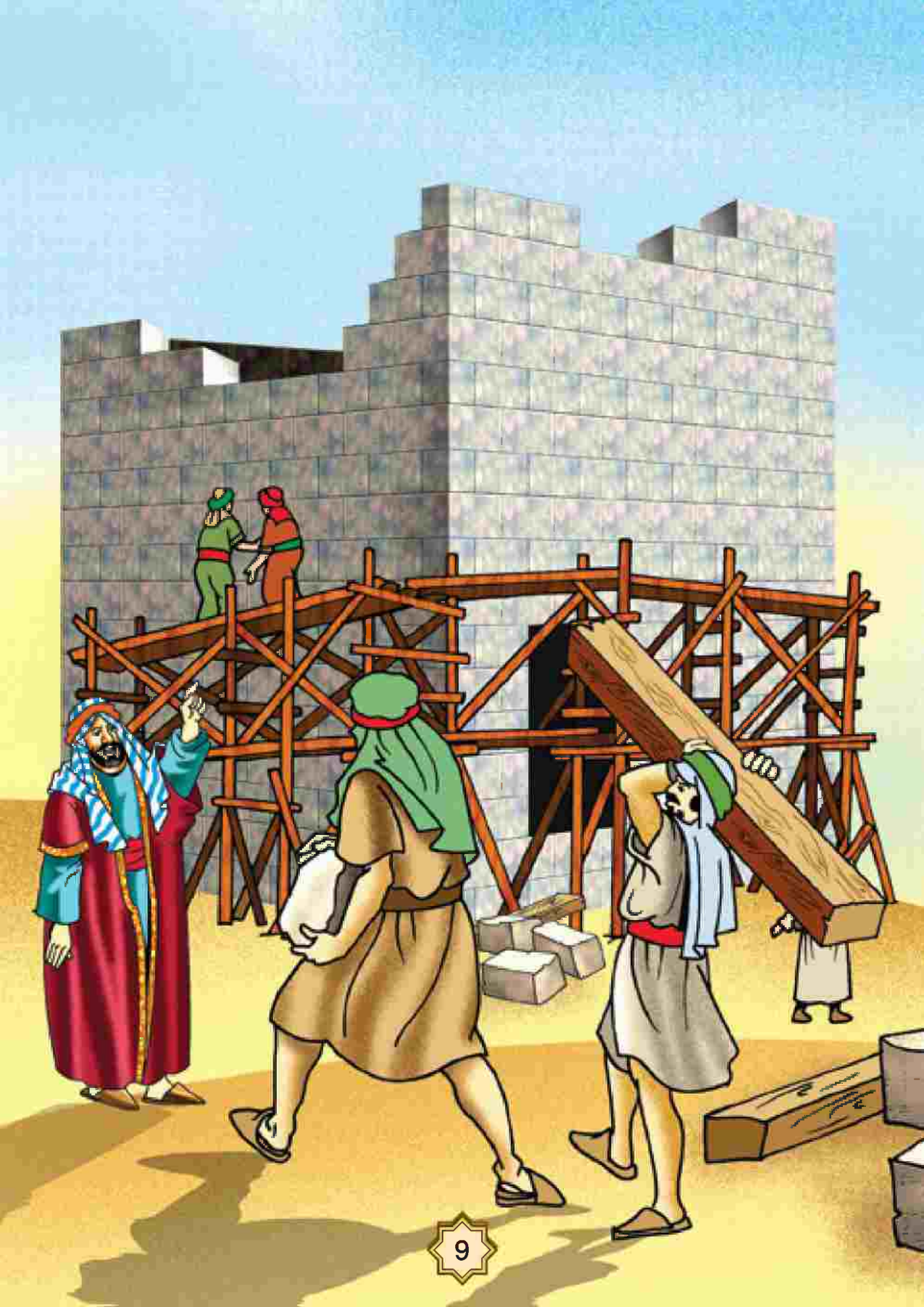

وَكَانَ «مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ» ﷺ هُوَ أَوَّلَ مَنْ دَخَلَ عَلَيْهِم، فَقَالُوا جَمِيعًا :

- هَذَا الأمِينُ رَضِينَاهُ.

فَلَمَّا حَكَّمُوه بَيْنَهُم بَسَطَ «مُحَمَّدٌ» ﷺ رِدَاءَهُ، وَوَضَعَ الحَجَرَ فِيهِ، وَقَالَ لَهُمْ :

- لِتَأْخُذْ كُلُّ قَبِيلَةٍ بِنَاحِيَةٍ مِنَ الثَّوبِ.

فَلَمَّا رَفَعُوا الحَجَرَ إِلَى مَوْضِعِه، تَنَاوَلَهُ بِيَدِهِ وَوَضَعَهُ فِى مَكَانِهِ.

كَانَ هَذَا التَّصَرُّفُ الحَكِيمُ مِنْ «مُحَمَّدٍ» ﷺ سَبَبًا فِى مَنْعِ فِتْنَةٍ عَظِيمَةٍ بَيْنَ العَرَبِ، وَكَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَرَادَ أَنْ يُهَيِّئَهُ لأَمْرٍ عَظِيمٍ، وَيَجْعَلَ ذَلِكَ بِشَارَةً لِجَمْعِ شَمْلِ العَرَبِ وَنَشْرِ الحُبِّ والوِئَامِ بَيْنَهُم، عَلَى يَدَيْهِ، فَإِنَّ «مُحَمَّدًا» لَمْ يَكُنْ يَهْتَمُّ بِمَا يُقْبِلُ عَلَيْهِ شَبَابُ «مَكَّةَ» مِنْ أُمُورِ اللَّهْوِ والعَبَثِ، وَإِنَّمَا كَانَ يُحِبُّ الخَلْوَةَ والتَّعَبُّدَ فِى غَارِ «حِرَاء» فَوْقَ أَحَدِ الجِبَالِ القَرِيبَةِ مِنْ «مَكَّةَ».

ظَلَّ «مُحَمَّدٌ» ﷺ يَخْلُو بِنَفْسِهِ فِى غَارِ «حِرَاء»، فَيَتَعَبَّدُ اللَّيَالِىَ الطُّوالَ، وَذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَمَا كَانَ «مُحَمَّدٌ» فِى الغَارِ أَبْصَرَ فَجْأَةً شَخْصًا أَمَامَهُ، فَدَاخَلَهُ شَىْءٌ مِنَ الخَوْفِ والرَّهْبَةِ، فَضَمَّهُ «جِبْرِيلُ» - عَلَيْهِ السَّلامُ - قَائِلاً : اقْرَأْ . فَقَالَ «مُحَمَّدٌ» ﷺ : مَا أَنَا بِقَارِئ. فَظَلَّ جِبْرِيلُ يُرَدِّدُهَا عَلَيْهِ، حَتَّى قَالَ لَهُ وَقَدْ تَمَلَّكَتْهُ الحَيْرَةُ. مَا أَقْرَأ؟ فَقَالَ لَهُ : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ (العلق:١).

كَانَ وَقْعُ المُفَاجَأَةِ شَدِيدًا عَلَى «مُحَمَّدٍ»، فَتَمَلَّكَهُ الخَوْفُ، وَأَسْرَعَ عَائِدًا إِلَى «مَكَّةَ».

دَخَـلَ «مُحَمَّدٌ» ﷺ عَلَى زَوْجَتِـهِ «خَدِيجَةَ» وَهُوَ يَتَصَبَّبُ عَرَقًا، وَأَسْـرَعَ إِلَـى فِرَاشِـهِ وَهُوَ يَرْجُفُ وَطَلَـبَ مِنْهَا أَنْ تُغَطِّيَـهُ، فَغَطَّتْهُ «خَدِيجةُ» حَتَّى زَالَ عَنْهُ الخَوْفُ وَهَدَأَتْ نَفْسُهُ، فَرَاحَ يَقُصُّ عَلَيْهَا مَا حَـدَثَ، فَأَخَذَتْ «خَدِيجَةُ» تُطَمْئِنُهُ وَتُشَجِّعُهُ، ثُمَّ طَلَبَتْ مِنْهُ الذَّهَابَ مَعَها إلى ابْنِ عَمِّهَا «وَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلٍ».

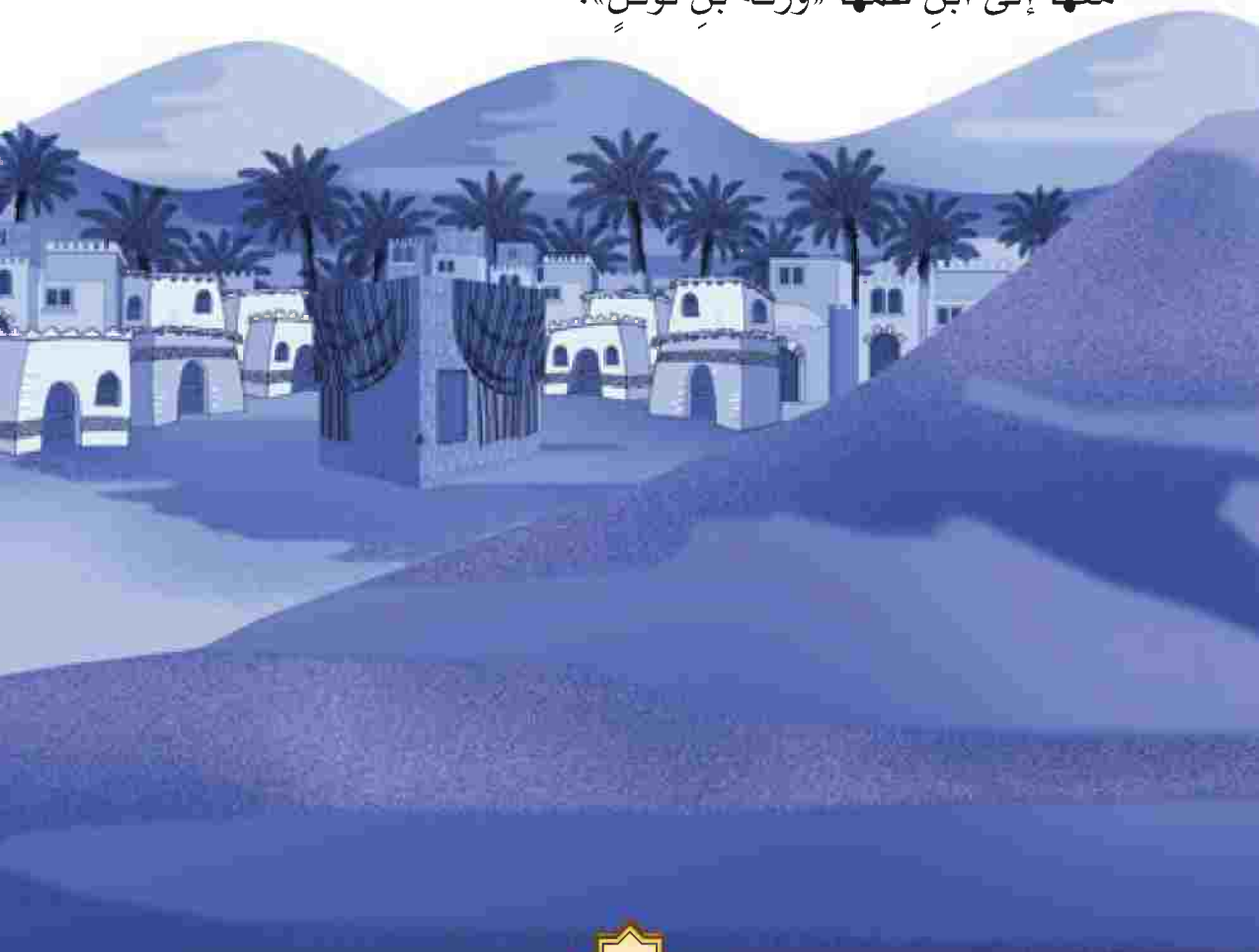

نَظَرَ «وَرَقَةُ» إلَى «مُحَمَّدٍ» ﷺ طَوِيلاً، ثُمَّ قَالَ بِصَوْتٍ عَمِيقٍ:

- إنَّهُ المَلَكُ «جِبْرِيلُ» الذِى أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى «مُوسَى» و«عِيسَى».

وَصَمَتَ قَلِيلاً وَهُوَ يَنْظُرُ نَحْوَ السَّمَاءِ ثُمَّ قَالَ:

- لَيْتَنِى كُنْتُ شَابًا قَوِيًّا لأُسَاعِدَكَ وَأَحْمِيَكَ فِى نَشْرِ دَعْوَتِكَ.

اطْمَأَنَّ قَلْبُ «مُحَمَّدٍ» لِكَلِمَاتِ «وَرَقَةَ»، وَعَادَ إلَى بَيْتِهِ فِى رِضًا وَسَعَادَةٍ.

ظَلَّ النَّبِىُّ ﷺ يَتَرَدَّدُ عَلَى الغَارِ، وَهُوَ فِى شَوْقٍ إلى عَودَةِ «جِبرِيلَ» إلَيْهِ، حَتَّى جَاءَهُ مَرَّةً أُخْرَى يُبَشِّرُه بِالنُّبُوَّةِ والرِّسَالَةِ، وَبَدَأَ النَّبِىُّ ﷺ يَدْعُو النَّاسَ سِرًّا إلى الإسْلامِ، وَكَانَ المُسْلِمُونَ الأوائِلُ يَجْتَمِعُونَ سِرًّا فِى دَارِ «الأَرْقَمِ بْنِ أَبِى الأَرْقَمِ».

بَـدَأَ نُورُ الإِسْلامِ يُشْرِقُ فِى «مَكَّـةَ»، وَأحَسَّتْ «قُرَيشٌ» بِالخَطَرِ مِنْ هَذَا الدِّينِ الجَدِيدِ، فَرَاحَتْ تُعَذِّبُ كُلَّ مَنْ آمَنَ بِالنَّبِىّ ﷺ .

وَتحَمَّـلَ المُسْلِمُونَ الأوائلُ مِنْ صُنُوفِ العَذَابِ وَالأذَى فِى سَبِيـلِ اللَّـهِ مَا لا يَتَحَمَّلُـهُ كَثِيـرٌ مِـنَ البَـشَرِ، وَظَـلَّ النَّبِـىُّ ﷺ يَدعُـو النَّاسَ سِرًّا إِلَـى الإِسْلامِ ثَلاثَ سَنَـوَاتٍ، حَتَّى أَمَرَه اللَّـهُ بِالجَهْرِ بِالدَّعْـوَةِ، لِتَبْدَأَ مَرْحَلَةٌ جَدِيدةٌ مِنْ مَسِيرَةِ الإِسْلامِ.